السياسة الخارجية العراقية وصراع مراكز القوى

على هامش مقالة طارق عزيز وتعليقات جريدة بابل

ان مسؤولية اتخاذ القرار السياسي الخارجي هي في الغالب مسؤولية رأس النظام او رأس السلطة التنفيذية في الدولة، وفي ذلك تلتقي الانظمة الديمقراطية والدكتاتورية، ولكن الفرق بين النظامين هو في اسلوب الوصول الى القرار - من جمع المعلومات الى التحليل ووضع الخيارات- فاذا كان في الانظمة الديمقراطية قدر اوسع من المشاركة في صنع القرار من خلال مؤسسات الدولة الدبلوماسية والاقتصادية والاستخبارية والعسكرية، فان الانظمة الدكتاتورية تحصر المشاركة وتقلص دور المؤسسات المعنية لتصبح مجرد اداة تنفيذ. ان عنصر المحاسبة والمساءلة في النظام الديمقراطي يدفع صاحب القرار السياسي الى طلب المشورة والخبرة من المؤسسات المعنية دون ان يعفيه ذلك عن مسؤولية القرار. ولكن في غياب المحاسبة والمساءلة في الانظمة الديكتاتورية تتكرس اخطاء القائد او الرئيس وتصبح مسؤولية اجهزته الدبلوماسية والاعلامية تبرير الخطأ، وواجب اجهزته الامنية قمع المعارضة ومنع الانتقاد.

قرار غزو الكويت

فقرار غزو الكويت، كما ذكر سعد البزاز الذي كان قريبا من الحكم، في كتابه "الحرب تلد اخرى" هو قرار انفرد به صدام حسين ولم يكن على علم به سوى افراد لايزيد عددهم عن اصابع اليد الواحدة، وهم بالتحديد علي حسن المجيد، وحسين كامل حسن وقائد الحرس الجمهوري الفريق اياد فتيح الراوي. وفي الساعة الاخيرة من مساء الاول من اب 1990 اجتمع صدام حسين بعدد محدود من اعضاء القيادة العراقية ليطلعوا على قرار الغزو.

عدم الاعتماد على جهاز الخارجية العراقية

ذكر بوب وودورد، الكاتب الصحفي الامريكي الذي كان وراء كشف فضحية وترغيت، في كتابه "القادة"، بان صدام حسين لجأ للاستعانة بالسفير السعودي الامير بندر البالغ 41 عاما انذاك لينقل للرئيس الامريكي رسالة شفوية بشأن خطابه (1 نيسان 1990) الذي ناقش فيه مقدرة اسلحته الكيمياوية وهدد بحرق نصف اسرائيل في حال تعرض العراق لهجوم اسرائيلي. لجأ الرئيس العراقي الى سفير العربية السعودية - بدلا، كما هو المفروض، اعتماد الخارجية العراقية وسفيرها لدى امريكا- ليؤكد بان خطابه لم يقصد به تهديد اسرائيل وانما كان للاستهلاك الداخلي المحلي حيث مضت سنتان على وقف اطلاق النار بين ايران والعراق، وقد اخذ الشعب العراقي يسترخي وعليه "يجب ان اثيرهم بنوع من الحماس او التعبئة العاطفية حتى يكونوا مستعدين لاي شيء يمكن ان يحدث".

ان وزارة الخارجية، مثلها مثل بقية مؤسسات الدولة، خضعت خلال ربع قرن من حكم البعث الى عملية تطهير و"تبعيث"، حيث استبدلت الكفاءة بالولاء كمعيار للتعيين والعمل في مؤسسات وزارة الخارجية، ومع ذلك بقى دور الدبلوماسية العراقية هامشيا مقتصراً على تنفيذ التعليمات انطلاقا من مقولة "نفذ ولا تنظر". وحتى رأس الدبلوماسية العراقية، طارق عزيز، حجم دوره في القضايا الخطيرة الى مجرد اداة نقل، وهذا ما حصل في لقاء بيكر-عزيز في 9 كانون الثاني 1991 في جنيف حيث اقتصر دوره على الاستماع ولم يكن يملك اي هامش للتفاوض، فانتهى الاجتماع بعد ست ساعات بالفشل الكامل، علما ان اللقاء كان فرصة العراق الاخيرة للخروج من مأزق الحرب القادمة. وذكر طارق عزيز في رده على سؤال بشأن الاجتماع بانه لم يتحدث هاتفيا مع الرئيس صدام حسين اثناء اللقاء مع بيكر، وحول اعتبار الحرب حتمية قال "هذا يرجع الى الولايات المتحدة، ونحن مستعدون لكل الاحتمالات واذا هاجمونا لن نفاجأ". . فكانت الحرب . . وكانت المأساة

مراكز القوى و البحث عن كبش فداء

غالبا ما ساهمت الدبلوماسية في احتواء نتائج الحروب، ولنا في دور تاليران، رئيس الدبلوماسية الفرنسية في احتواء هزائم نابليون العسكرية عن طريق العمل الدبلوماسي، نموذجا رائدا.

وبالعكس فان شل الدبلوماسية العراقية حرم العراق من فرصة احتواء نتائج قرار غزو الكويت، وذلك بتنظيم عملية الانسحاب من الكويت، الامر الذي كان بالنسبة لبعض الدول الغربية بمثابة "السيناريو الكابوس" لانه كان سيبقي على قدرات العراق العسكرية.

ولكن الدبلوماسية العراقية وجدت نفسها مطالبة بدور ببغاوي لايزيد عن تبرير الاخطاء من منطلق ان الحرب كانت قدرا لا مهرب منه. . وان امريكا كانت ستضرب العراق باي حال من الاحوال. وبدلا من ان يؤدي التجاء بعض السفراء (الذين عملوا اكثر من ربع قرن في خدمة النظام) لدول التحالف الى اعادة النظر في تركيبة ودور الخارجية العراقية، ازداد التشكيك بالخارجية وبدورها.

تلكأت بغداد في البداية في التعاون مع اللجنة الخاصة بنزع السلاح ذات الدمار الشامل، وقصة تفتيش وزارة الزراعة لاتزال ماثلة للاذهان، ولكن بعد مضيعة عامين، تراجعت بغداد لصالح التعاون مع اللجنة ولكن بشيء من التذبذب بما يعكس تناقضا بين اطراف رسمية مختلفة.

ومع بروز جريدة بابل برئاسة عدي صدام حسين، كمركز قوى مستقل ازداد التشكيك بالخارجية والدبلوماسية العراقية.

تعاملت جريدة "بابل" مع الحصار والعقوبات الاقتصادية باسلوب مغاير الى حد التناقض مع الخارجية العراقية. ففي الوقت الذي تحاول الخارجية الاستجابة لطلبات السفير ايكوس، تنهال بابل بالسباب على الامم المتحدة وعلى اللجنة الخاصة بالتسلح العراقي، محملة الدبلوماسية العراقية مسؤولية الفشل في فك الحصار.

ان المقال الذي نشر في "بابل" بتاريخ 9/5/1994 بقلم عمر الكاظمي (اسم مستعار)، يذكر بان انحسار التعاطف العربي مع العراق بعد الحرب يعود الى فشل الدبلوماسية العراقية، فيقول (حدثت ام المعارك واعقبتها مرحلة. . فما الذي حدث؟ الذي حدث انه بعد العدوان المسلح وصفحة الغدر والخيانة وانشغال العراق بوضعه الداخلي وعدم وجود دبلوماسية نشطة ووجود اشخاص يدركون التعامل بالسياسة الخارجية، جعل هذا الصف المؤيد يبدأ بالتصدع ومن ثم الانحسار ثم تراجع عدد المؤيدين لنا).

وفي الوقت الذي تلوح الدبلوماسية العراقية عن استعدادها للاعتراف بالكويت وقرار 833، تنبري "بابل" الى استخدام "الكاظمة" او المحافظة 19 كاشارة للكويت، وعندما يحاول طارق عزيز في لقاء له مع عدي اقناعه بان "الواجب الوطني يحتم على الجريدة التخلي عن هذه الكلمة"، يرد عدي على صفحات "بابل" (18/8/1994) بمقال بعنوان "الوهم"، واصفا حديث طارق عزيز دون ذكر اسمه، بانه "عرض مطول وممل" ثم يتساءل عن جدوى التوقف عن الاشارة خاصة وان الحصار سوف لن يرفع.

وليس من الغريب ان يشير الممثل الدائم للكويت لدى الامم المتحدة الى هذا المقال وغيره من مقالات "بابل" للتدليل على عدم استجابة العراق لقرارات الامم المتحدة الخاصة بالاعتراف بالكويت، وكان اخرها ماجاء في مذكرته لرئيس مجلس الامن في مطلع ايلول 1994، عندما كان المجلس ينظر في مراجعة قرار الحصار.

ان تخبط الدبلوماسية العراقية تحت تأثير الضغوط الداخلية يعكسه فشل المفاوضات مع تركيا بشأن تنظيف انبوب النفط المار بتركيا التي من شأنه ضخ 27 مليون برميل من النفط الخام العراقي منها 12 مليونا داخل الخط و 15 مليونا اخرى سيتم دفعها في خط الانابيب لتنظيفه، حيث توصل الطرفان بعد جهد الى صيغة حل وسط من اجل درء المعارضة الامريكية، وذلك بان يتم دفع حصة العراق من النفط المخزون في الانابيب على شكل مواد غذائية وادوية، وتحاشيا لمطالبة امريكا بان يتم توزيع تلك العوائد باشراف الامم المتحدة توصل الطرفان، من حيث المبدأ، الى حل ينيط بالهلال الاحمر التركي مهمة التوزيع في المنطقة الكردية، وتترك البقية بيد الحكومة العراقية. و يبدو ان مزايدات التيار المتشدد والخوف من اتهاماته دفعت المفاوض العراقي للتراجع عن فكرة تولي الهلال الاحمر التركي مهمة التوزيع، مما الغى الصفقة التي العراق بامس الحاجة اليها.

ويبدو ان ذات التناقضات الداخلية دفعت بغداد لعدم المشاركة في مؤتمر السكان في القاهرة، مضيعة بذلك فرصة مهمة للتحرك الدبلوماسي. وهي بذلك تلتقي بالسعودية التي رفضت المشاركة تحاشيا لانتقادات التيار السلفي في

الداخل.

ونتصرف "بابل" كمركز ثقل متميز عندما تنبري للهجوم الصريح على برزان التكريتي، عم عدي، والذي يشغل منصب المستشار السياسي لصدام حسين وممثل العراق لدى الامم المتحدة في جنيف.

اعتاد برزان التكريتي في السنوات الاخيرة بعد الحرب، الكتابة بين الحين والاخر في الصحافة العراقية باسلوب انتقادي، وكتب في اخر مقالة له نشرت في صحيفة "الجمهورية" بتاريخ 8/5/1994، مقالا حول احداث اليمن والاقتتال الدائر بين شطريها، طارحا وجهة نظر ينتقد فيها دعاة الوحدة الفورية، او الوحدة بالقوة فيقول ((ان ما اوصل الحالة الى الحرب الشاملة هو ان البعض ينظر الى مفهوم الوحدة: اما ان تكون كاملة او ان البديل الاخر الوحيد هو الحرب الشاملة المدمرة وكما يدور الان . . . ومن المؤلم ان الوحدة بين شطري اليمين اصبحت كابوسا يخيم على اليمن باكملها وعلى المخلصين للوحدة من العرب اينما كانوا . . . . ان مايحدث الان تكرار لنموذج الوحدات العربية التي سبقت وحدة شطري اليمن. . فمعروف ان العلاقة تبدأ بالعناق والقبل وتنتهي بالخلافات ثم الحرب. . لذا نسأل. . من يريد الحرب من اجل الوحدة؟ ومن يريد الوحدة التي تجلب الحرب؟)) .

ويذهب برزان التكريتي اكثر منذ ذلك عندما يقول : ((ان الصراع على السلطة ومراكز النفوذ جعل كلمة الوحدة مرادفة لطمع وجشع اغلبية السياسيين في العالم الثالث بشكل عام والوطن العربي بشكل خاص. . . وحلم الوحدة تحول الى خوف ورعب وهلع، بل تحول الى كابوس، ليس في اليمن فقط، بل في انحاء اخرى من الوطن العربي..)). ورغم ان ليس في المقال اي اشارة للكويت، الا ان القياس والمقارنة توصل القارىء الى قناعة ضمنية بانتقاد الكاتب لاي عملية قسرية للوحدة، بما في ذلك عملية ضم الكويت للعراق.

ان هذا يفسر، بعض الشيء، غضب "بابل" وهجومها على برزان التكريتي (انظر مقالة "جنتان وليس بلدان"، بتاريخ، 9/5/1994) بقلم عمر الكاظمي - اسم مستعار.

اخذ رد "بابل" طابعا شخصيا، فقلل من اهمية دور برزان ابراهيم (وليس التكريتي)، وعند مقارنته بعدنان خير الله يخلص بان الاخير كان" اعمق بتاريخه بحكم مشاركته بثورة رمضان وامتداداته" وانه كان اكثر شعبية وجاذبية من برزان.

وتعرض الرد لسيرة برزان قائلا: "كان في مطلع الثمانينات بعمر الشباب وكان يدير واحدا من اجهزة الدولة الحساسة " و "شاءت الظروف ان يبتعد برزان عن واقع العمل السياسي وظل مبتعدا ثم عاد عودة هامشية عام 1989 من خلال استلامه ممثلية العراق في الامم المتحدة في جنيف وبدأت تظهر له كتابات في الصحافة العراقية".

وعن مقالات برزان، تقول "بابل" ((ثم ظهرت مقالات ثانية وثالثة ورابعة ولاحظنا ان سلسلة من الافكار البعيدة عن طريقة تفكيرنا نحن الذي نعيش في العراق وبدأت تبتعد عنا وتقترب باتجاهات الاشخاص الذي يعيشون

خارج هذا البلد))، وانطلاقا من تصنيف العراقيين على اساس عراقي الخارج وعراقي الداخل، يصبح برزان التكريتي متهم بغربته في الخارج !! وعليه يقول "الكاظمي" : ((وجدنا ان من المناسب الرد عليها -المقالات- باعتبارنا شباب وفئة تعيش في العراق وعايشنا ام المعارك وقاتلنا في الكويت والبصرة وعشنا كل مراحل الحصار)).

فالكاظمي ينتقد دعوة برزان للتعايش بين العراق وايران، لان "في الحقيقة لايمكن ان نتعايش مع ايران". وفي الحديث عن اليمن والوحدة يرفض الكاظمي رأي برزان "الذي يمارس عمله في الغرب"، مستشهدا بالوحدة الالمانية التي تمت بالسلاح على يد بسمارك، وبالوحدة الامريكية للولايات الشمالية والجنوبية التي توحدت كذلك بالسلاح. وان الوحدة الحقيقية التي تحققت ((هي الوحدة المعروفة لدى العراقيين والتي حدثت بكل مفهومها الحقيقي والذي كان يجب ان تحدث فيه))، وذلك اشارة الى اجتياح العراق للكويت. وينتقد استشهاد برزان بعبد الناصر في عدم استخدام القوة من اجل الحفاظ على الوحدة المصرية السورية، قائلا رغم ان عبد الناصر كان رمزا من رموز الحركات الثورية، الا انه "لم يكن مثالا لكل الوطنيين على صعيد الامة او لكل القوميين"، ومن اخطاء عبد الناصر وقوفه مع الانكليز ضد عبد الكريم قاسم عندما طالب بالكويت، كما ان عدم استخدام عبدالناصر القوة للحفاظ على الوحدة بين مصر وسوريا هو "السبب في وجود حافظ اسد الان".

طارق عزيز والدفاع عن الدبلوماسية العراقية

ان مقالة طارق عزيز بعنوان "اراء وملاحظات حول: مزاعم الاتصالات بين العراق واسرائيل وقضية رفع الحصار"، التي نشرت في صحيفة القدس (لندن 7 ايلول 1994)، هي اكثر من مجرد رد على ادعاءات حول اتصالات عراقية باسرائيل، بل هي اقرب للدفاع عن نفسه امام تيار "بابل" الذي لاينفك يهاجم الدبلوماسية العراقية ويحملها فشل فك الحصار. يقول عزيز: ((انني لا ابالغ، ولا اردد كلاما دعائيا، عندما اؤكد بان رفع الحصار عن العراق هو بالدرجة الاولى "قضية عراقية". . اي ان صمود العراق السياسي والاقتصادي والاجتماعي وتمسك قيادته وشعبه بالثوابت الوطنية واثباته بالواقع الملموس ان اهداف الادارة الامريكية غير ممكنة التحقيق هو الذي ادى الى التغيير في مواقف الدول الاخرى التي شاركت امريكا في مواقفها واهدافها في السابق، وهو الذي سيغير الموقف الامريكي))، ان هذا الطرح يضع مسؤولية فك الحصار بالدرجة الاولى على الساحة الداخلية، اما الدبلوماسية حسب قول طارق عزيز فهي ((عامل مساعد لا غنى عنه ولكنها ليست نفطة البدء وليست العامل الحاسم. ان مهمة الدبلوماسية العراقية في الوقت الحاضر هي في توضيح الحقائق لاعضاء مجلس الامن بصورة خاصة وللمجتمع الدولي بصورة عامة وفي ازالة الذرائع الفنية والقانونية التي تستخدمها امريكا لتغطية موقفها السياسي المغرض حتى ينكشف هذا الدور بصورة كاملة للجميع. . ويعزل الموقف الامريكي عن مواقف الدول التي ليس لها هدف سياسي مغرض ضد العراق سواء داخل مجلس الامن او خارجه من الدول المهمة . . .)).

وقد سبق لطارق عزيز ان حدد معالم "القضية العراقية" عندما قال في حديث (صحيفة الاتحاد 29/5/1991)، بانه "لابد من ان نتجه نحو التعددية" وان المرحلة القادمة يجب ان "تكون فعلا مرحلة جديدة، هي مرحلة الانتقال من المشروعية الثورية الى المشروعية الدستورية" واذا كانت ظروف الحرب الاستثنائية في تحول في السابق من الانفتاح فان "المرحلة المقبلة فلا توجد حجج او ذرائع تحول دون ان ندخل مرحلة جديدة" وانتقد عزيز نهج التفرد وغياب المعارضة.

ان هذا النهج يختلف تماما عن سياسة قطع الايادي والاذان ووشم الجباه التي تهلل لها "بابل"، رغم ان هذه السياسية ستتحول الى اداة بيد امريكا لتبرير الاستمرار بالحصار بحجة استمرار النظام العراقي في انتهاك حقوق الانسان. وبدلا من اعتماد الانفتاح والتعددية التي يمليها حديث طارق عزيز لصحيفة الاتحاد المغربية، تصف "بابل" المعارضة ،كل المعارضة العراقية، بقولها ((نحمد الله بان المعارضين لنظام الحكم في العراق هم بهذه الشاكلة مجموعة من سماسرة التجارة، مجموعة من عملاء الاجنبي. . مجموعة من المطعونين في اخلاقيتهم او في انتسابهم للجنس العربي العراقي الصحيح . .)).

ان توقف برزان التكريتي عن الكتابة منذ ايار الماضي، ولجوء طارق عزيز للدفاع عن نفسه في صحافة لندن، هو انتصار لنهج "بابل".

اين موقع رأس النظام في لعبة شد الحبل الداخلية

السؤال الذي يتبادر للذهن: اين موقع رأس النظام من لعبة شد الحبل هذه؟ هل هي سياسة مسك العصى من الوسط بانتظار ما تتمخض عنه الاحداث؟ ام ان هناك موقفا مدروسا بهدف التلويح لامريكا والامم المتحدة بان استمرار الحصار دون اعتراف بتجاوب العراق سيؤدي الى ربحان كفة تيار "بابل" المتطرف نتيجة فقدان الامل بفك الحصار وبالتالي لا يصبح للاستمرار بالتعاون مع الامم المتحدة اي مبرر، مما يدفع النظام للدخول في مواجهة مع الامم المتحدة وامريكا من خلال تصعيد عسكري في جنوب او شمال العراق، او اي مغامرة اخرى. ان هذه المراهنة، اذا صحت، فهي رهان خاسر لان امريكا وبالذات ادارة كلينتون ليست في مزاج (لاسباب دولية وانتخابية محلية) يسمح لها بالتراجع، كما تعب شعبنا من كثرة التضحية بالمجان. لقد جرب النظام منذ غزو الكويت مختلف البدائل، دون فائدة، أما حان وقت المراهنة على الانفتاح والمراجعة؟

(الملف العراقي، العدد 34 - تشرين الاول 1994)

❋ ❋ ❋